

تفسير القرآن طريقاً إلى كشف الظواهر البلاغية

ليس من غايتنا في هذا المقام تتبع جهود المفسرين للقرآن الكريم منذ مراحلها الأولى وعبر أجيال متوالية ، وإنما السعى إلى اثبات الفكرة القائلة بأن محاولة فهم النص القرآني فهما صحيحا وإدراك مراميهِ ، ودفع الشبهات المثارة من حوله كانت سبيلا إلى التوصل إلى كثير من الظواهر الأسلوبية التي عرفتها البلاغة العربية ، واستقرت عليها في مرحلتها الأخيرة خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ثم من بعد ذلك إلى الوقت الحاضر . وأول ما نشير إليه في هذا المقام كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ)^(٣) المسمى « مجاز القرآن » فهو أول كتاب في تفسير القرآن حفظه التاريخ دون أن تمتد إليه يد العيب أو الضياع . حقا إنه ليس على غرار كتب التفسير المعروفة كالطبرى ، والقرطبي ، وابن كثير وأضرابهم ممن يعرضون لجميع الآيات ويشرحونها شرحا مستفيضاً مع ذكر الآراء والروايات المختلفة ، وإنما عنى فيه صاحبه ببعض آيات السورة الواحدة أو ببعض المفردات والتراكيب من آية واحدة في لمسات سريعة تكشف عن المراد ، وتوضح المطلوب . وبهذه الصورة جاء الكتاب منسجماً مع الدافع الذي حفز صاحبه إلى تأليفه ، ويتلخص في استفسار أحد جلسائه - بحسن نية أو بسوءها - عن أحد تشبيهات القرآن الكريم ، فقد روى الخطيب البغدادي خبراً مسنداً إلى أبي عبيدة نفسه يقول فيه : « أرسل إليّ الفضل ابن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه ، فقدمت عليه - وكنت أُخبر عن تجبره . فأذن لي ، فدخلت - وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه ، وفي صدره فرش عالية ، لا يُرتقى إليها إلا على كرسي ، وهو جالس عليها - فسلمت بالوزارة ، فرد وضحك إليّ ، واستدناى حتى جلست مع فرشه ، ثم سألتني وألطفني وبسطني . وقال : أنشدني ، فأنشدته من عيون أشعار أحفظها جاهلية . فقال لي : قد عرفت أكثر هذه ، وأريد من ملح الشعر فأنشدته ، فطرب وضحك ، وزاد نشاطه . ثم دخل زجل في زى الكتاب له هيئة فأجلسه إلى جانبي ، وقال له : أتعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل ، وقُرظ له فعله هذا ، وقال لي : إن كنت إليك لمشتاقاً ، وقد سئلت عن

(٣) انظر في ترجمته مقدمة النسخة المحققة التي كتبها الدكتور محمد فؤاد سزكين والمراجع المبينة بها .